

من الدستور الإلهي

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١) .

﴿ أَمِنْ هُوَ قَانَتْ آثَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ، إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ (٢) .

﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (٣) .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (٤) .

* * *

(٢) الزمر : ٩

(٤) الحج : ٥٤

(١) العلق : ١ - ٥

(٣) التوبة : ١٢٢

obeikandi.com

بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الموضوع

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وبفضله تنزل الخيرات ، وبتوفيقه تتحقق الغايات ، الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والصلاة والسلام على البشير النذير ، والسراج المنير ، سيدنا وإمامنا ، وأسوتنا وحبيبنا محمد ، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين .
أما بعد . .

فقد تعرفت على التصوف مبكراً عن طريق كتيبه ، وعن طريق أحد أعلامه ، وهو الإمام أبو حامد الغزالي الذى اعتبره شيخى الأول رضى الله عنه .
كنت فى الخامسة عشر من عمري ، بعد أن أنهيت السنة الأولى من القسم الابتدائى بمعهد طنطا ، وكان عندى نهم للقراءة فى غير المقررات الرسمية من كتب الأزهر .
وكانت قراءتى فى طنطا - خارج الدراسة - فى كتب الأدب ، وخصوصاً أدب المنفلوطى فى نظراته ، وعبراته ، ورواياته ، التى كان جيلنا يبدأ بها قراءته وتكوينه الأدبى ، ولهذا كنت تجد البطاقات الخاصة بالمنفلوطى فى دار الكتب بطنطا ، شبه بالية ، لكثرة تقلبها فى الأيدى .
أما قراءتى فى قرىتى - صفط تراب - فلم يكن فيها دار كتب ، ولم تكن كتب الأدب مما يتيسر وجوده فى مثل تلك القرى ، وفى ذلك العصر . لهذا حين أردت أن أقرأ وجدت كتب التصوف هى المتاحة لى .

• اتصالى بالإمام الغزالي مبكراً :

شاء القدر أن يهينى لى كتابين كلاهما للغزالي . أحدهما : وجدته بين كتب زوج خالتى ^(١) وكان رجلاً صالحاً حافظاً لكتاب الله ، يعيش فى خدمة بيت الله ، قلماً يخالط الناس ، رحمه الله . هذا الكتاب هو « منهاج العابدين » الذى صنفه الغزالي قبل وفاته بقليل .

وقد وجدت متعة كبيرة فى قراءة هذا الكتاب ، واستعنت به فى دروسى ووعظى فى تلك المرحلة ، وإن كان لى عليه مأخذ وملاحظات ، وخصوصاً فى باب التوكل والزهد ، وما فيه من توجهات حكايات تتسم بالمبالغة والإفراط .

والثانى : « إحياء علوم الدين » فقد كان يقتنيه جار لنا ، من نبهاء أهل القرى ، الذين كان لهم حظ من الاطلاع على بعض كتب الشافعية فى العبادات ، وخصوصاً فى الطهارة والصلاة ، ولهم مجالسة للمشايخ والعلماء ، وكان تلميذاً لأحد مشايخ الطريق فى بلدتنا ، وهو الشيخ محمد أبو شادى ، الذى كان خليلياً ، ثم استقل بطريقة قوامها : العبادة والذكر ، ثم قراءة « الإحياء » وشعارها الذى يحفظه مريدوها : مَنْ جالسنا فلا يذكر إلا الله وحده ، فإن كان ولا بد من ذكر غيره ، فليذكر الآخرة ، وليذكر الصالحين ! (اعتبروا ذكر الآخرة مغايراً لذكر الله ، وهو غير صحيح ، لأن ذكر الآخرة يعنى : ذكر لقاء الله وحسابه وجزائه) . وقد شهدت بعض « حَضَرَاتِهِمْ » ولم أستمّر معهم ؛ إذ لم يشبعوا كل نهى ، ولم يوافقوا مزاجى الوَسْطَى .

فهذا ما جعل جارنا الشيخ بيومى ^(٢) رحمه الله يحرص على اقتناء كتاب « الإحياء » الذى أمسى غداءنا وفاكهتنا عصر كل يوم فى إجازات الصيف ، وخصوصاً : ربع « المهلكات » وربع « المنجيات » منه . مع تحفظى شخصياً على بعض ما فيه من غلو ، لم يكن ملائماً لطبيعتى ، ولكنى كنت متأثر بما فيه من رقائق ، وترتّش جوانحى ، ويترقق دمعى ، وهذا من دلائل إخلاص الغزالي رحمه الله .

(١) هو الشيخ طنطاوى مراد رحمه الله . (٢) هو الشيخ بيومى الغزولى رحمه الله .

ولما رأى الشيخ بيومى حريصاً على الكتاب ، تركه لى هدية ، وقد بقى
عندى ، حتى إنى اصطحبته معى إلى المعتقل سنة ١٩٤٩ ، هو وبعض أجزاء
من « العقد الفريد » لابن عبد ربه فى الأدب .

وفى المرحلة الثانوية تعرفت على بعض كتب التصوف الأخرى مثل :
شرح ابن عجيبة لحكم ابن عطاء الله السكندرى ، وبعض كتب الشيخ
عبد الوهاب الشعرانى ، وغيرها .

* *

● اتصالى بدعوة الإخوان وتوجهاتها الربانية :

وفى تلك المرحلة توثق اتصالى بدعوة الإخوان المسلمين ، وهى دعوة
ربانية الأساس والوجهة ، وقد كان مؤسسها - الإمام حسن البنا - رجلاً ربانياً ،
بدأ صوفى النشأة ، ثم تحرر من قيود الشكلية الصوفية ، مبقياً على جوهرها .
وهو سمو الروح ، وطهارة القلب ، ومحاسبة النفس ، وصدق الصلة بالله
تبارك وتعالى ، وسلامة الصدر من الأحقاد ، والحب فى الله ، والبغض فى الله .
وقد تجلّى ذلك فى شعارات الجماعة مثل : « الله غايتنا ، والرسول قدوتنا » ،
كما تجلّى ذلك فى مناهج تربيتها ، ومظاهر نشاطها ، حتى قال الشيخ البنا : إن
دعوتنا دعوة سلفية ، وحقيقة صوفية ، وطريقة سنية ، وهيئة سياسية . . . إلخ .
وكانت وسائل الإخوان فى التربية والتوجيه تؤكد هذا الجانب وتعمقه ،
مثل : الأسرة ، والكتيبة ، والمخيم . . وتركيزها على الذكر والبساطة والتلاوة
للقرآن والمأثورات من الأدعية ، وحب الخير للناس .

* *

● أثر أستاذنا البهى الخولى :

وزاد هذا الجانب تعميقاً فى فكرى ونفسى : اتصالى بأستاذنا البهى الخولى
رحمه الله ، وهو رجل ذوّاقة للمعانى الربانية ، عميق الحاسة الروحية ، وقد
كان يرأس الإخوان فى الغربية ، وكانت له محاضراته ودروسه التى يظهر فيها
الجانب الربانى ، والتى تجسّمت بوضوح فى كتابه « تذكرة الدعاة » الذى قدّم
له الشهيد البنا .

وكان للأستاذ البهي لقاءات خاصة مع مجموعة من الشباب ، اصطفاهم - كنت واحداً منهم - نصلى الفجر معاً كل أسبوع ، ونذكر الله عزَّ وجلَّ ، ونعيش في جو روحى محلِّق ، وقد أطلق على هذه المجموعة اسم « كتيبة الذبيح » ، يعنى بالذبيح : إسماعيل عليه السلام ، الذى أسلم عنقه طاعة لله دون تلكؤ ولا تردد ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ، سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ (١) .

* *

● الشيخان : الأودن وعبد الحليم محمود :

وفى دراستى العالية بكلية أصول الدين لقيت بها بعض شيوخنا الربَّانيين ، الذين عمقوا فى هذا الجانب الروحى أو الربَّانى ، أبرزهم اثنان : الأول هو شيخنا محمد الأودن أستاذ الحديث ، والثانى : هو شيخنا عبد الحليم محمود أستاذ الفلسفة ، الأول أزهري معمم ، والثانى أزهري متخرج فى فرنسا ، يلبس - حينذاك - « البذلة » ولا يلبس العمامة . وكان لكل شيخ منهما طريقته وتأثيره . الأول يؤثر بقوة كلامه وتدفعه ، والثانى يؤثر بصمته وتعمقه . الأول محرض ضد الباطل ، فهو أقرب إلى الروح الثورية ، والثانى داعية إلى الزهد والإقبال على الله . وكان الأول بروحه وثوريته وقوة منطقته ، وسخائه فى بيته ، وتواضع مظهره أقرب إلى نفسى وإلى طبيعتى ، وإن كنت أحب الشيخ عبد الحليم وأقدِّره . وقد درسنى الفلسفة فى السنة الثالثة والسنة الرابعة من الكلية ، على حين لم يدرسنى الشيخ الأودن ، وإنما كانت زيارتى له فى بيته بضاحية الزيتون . كل هذا قوى المعانى الربَّانية فى نفسى ، وزادها عمقاً فى كيانى ، ولم تكن عائقاً عن عملى فى « الدعوة » الذى شغل جهدى ووقتى ، بل كان دافعاً ومعيناً . ولقد اتسعت دراستى للتصوف فى تلك الفترة ، كما اتصلت اتصالاً أعمق ، بـ « المدرسة السِّلَفِيَّة » وإماميها المجدِّدين : ابن تيمية وابن القيم ، وقد أعجبت بالنظرة الشمولية التجديدية المتوازنة فى هذه المدرسة ، ومقاومتها لما دخل على الإسلام من تحريفات وانحرافات فى الفكر أو فى السلوك . ووجدت فى انتاج هذه المدرسة ما قوى عندى التوجه الربَّانى بضوابطه الشرعية .

وهكذا كان التصوف عندى فكراً وروحاً وخلُقاً ، لا عهداً على شيخ ، ولا التزاماً بطريقة من الطرق الصوفية المعروفة ، فقد أغتنى دعوة الإخوان عن أى طريقة ، وأغناني إمامها وأصحابه عن البحث عن شيخ رسمي من مشايخ الطريق .

كما صرفنى عن الطرق ما دخل عليها من خلل واضطراب فى الفكر ، وفى السلوك ، وكذلك فقد أهل الصدق والإخلاص فى صفوف قوادها ، إلا من رحم ربك ، وغلبة الاتجار بالاسم والزى واللقب على الكثيرين .

ولا غرو أن يلمس المراقب المنصف فى جنبات كثير من التصوف المعاصر : الشريكيات فى العقيدة ، والبدع فى العبادة ، والسلبية فى الأخلاق ، والشكليات فى الذكر ، والتسبب فى الفكر . .

ومع هذا لم أتخذ موقفاً عدائياً من التصوف كله ، بل ظللت أنتفع به ، وأقتبس منه ، فى محاضراتى وخطبى ، وفى مؤلفاتى وكتبى .

* *

● مواقف عملية معبرة :

وفى « ملتقى الفكر الإسلامى » الذى عُقد فى الجزائر سنة ١٩٨٧ - على ما أذكر - كان موضوعه « الإسلام والحياة الروحية » وطلب إلى منظمو الملتقى أن أفتتحه بمحاضرة أساسية عن « منهج القرآن والسنة فى إقامة الحياة الروحية » .

وألقيت هذه المحاضرة ، وكانت مترجمة ، ولكنها مُعدّة إعداداً طيباً ، موثقاً بالأدلة الناصعة من الكتاب وصحيح السنة ، مستأنساً بأقوال ربانىي الأمة ، ولا سيما كبار شيوخ الصوفية المشهود لهم بالاستقامة والفضل . ونقد لاحظت أن المحاضرة شدّت جمهور الحاضرين ، وكان لها تأثير بالغ على نفوسهم ، حتى قام صديقنا الدكتور سعيد رمضان البوطى ، وقال : لقد ظهر لنا أن الشيخ القرضاوى صوفى مقنّع ! يريد أن يخفى صوفيته بقناع العقلانية والسكّانية !

وقال لى صوفى جزائرى كبير معروف ، ونحن على مائدة الغداء : لقد منحك الله شيئاً ، به يتميز كلامك عن غيره ، قلت : وما هو ؟ قال : اللوعة ! قلت : ماذا تعنى ؟ قال : فى كلامك حرقه غير مصطنعة ، تؤثر فى سامعيك وهى هبة ربّانية ، يختص الله بها من يشاء من عباده .

وأذكر أنى فى جلساتنا مع شيخنا البهى الخولى رحمه الله ، كنت أنقد بعض كلمات الصوفية وبعض مواقفهم ، فكان يحسبنى متمرداً على التصوف كله ، فلما أخرجت كتابى « العباد فى الإسلام » وكتابى « الإيمان والحياة » قال لى : إنك تحمل قلب صوفى خدعنا عنه عقل الفقيه !

وفى زيارتى لندوة العلماء ودار العلوم بمدينة لكهنو بالهند ، فى أوائل الثمانينات ، ألقىت عدداً من المحاضرات فى موضوعات فكرية متعددة كان لها وقعها وأثرها ، ولكن أهم ما لفت نظرى قول الإخوة من علماء الندوة وأساتذة الدار : إننا اكتشفنا أنك من رجال التربية الروحية !

ويبدو أن الجميع يعتقدون أن سلفية الداعية ، وعقلانية المفكر ، تتعارضان مع النزعة الربانية أو الروحية ، وهذا فى رأى غير صحيح ، فقد كان ابن تيمية وابن القيم سلفيين وهما ربّانيان . وكان الغزالى عقلانياً ، وهو ربّانى . فلا تناقض بين هذه الأمور إذا فهمت على وجهها السليم ، ووضع كل منها فى موضعه الصحيح ، وإن كان بينى وبين هؤلاء الربّانيين مراحل ومراحل . . وأسأل الله العفو والمغفرة .

* *

● موقفى النظرى من التصوف :

وقد بينت موقفى من التصوف فى الجزء الأول من كتابى « فتاوى معاصرة » فى فتوتين من فتاواه ^(١) ، وهو موقف يتميز بالإنصاف ، والاعتدال فى تقويم التصوف ، فلست مع المفرطين فى مدحه ، ولا من المبالغين فى قدحه .

فأحمد الله أن هدانى إلى الموقف الوَسَط ، الذى لا يطغى فى الميزان ولا يُخسر الميزان ، كما علّمنا الله تعالى فى كتابه : ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ ^(٢) . فالعدل بين الطغيان والإخسار ، بين الإفراط

(١) انظر فتوى « حقيقة الصوفية » ، وفتوى « التصوف بين مادحيه وقادحيه » فى الجزء الأول من « فتاوى معاصرة » ص ٧٣٤ - ٧٤٣ - الطبعة الخامسة : دار القلم ودار الوفاء .

(٢) الرحمن : ٧ - ٩

والتفريط ، فقد ذكرت ما للتصوف وما عليه ، ولا ينكر أحد أثر التصوف والمتصوفة في الحياة الإسلامية ، فكم أسلم على أيديهم من كافر ، وكم تاب على أيديهم من عاص ، وكم رققوا من القلوب ، وزكوا من النفوس ، وهذبوا من الأخلاق ، فلنذكر هذا لهم ، بجوار ما نذكر من سقطات وشطحات ، والمتقدمون فيهم - بصفة عامة - أفضل من المتأخرين .

* *

● فتوى ابن تيمية عن التصوف والصوفية :

ولقد وجدت شيخ الإسلام ابن تيمية - مع صرامته في الالتزام بمنهج السلف ، وشدته في مقاومة البدع - يقف من التصوف والصوفية هذا الموقف الوسط العدل ، وهذا من إنصافه وسعة علمه ، ورحابة أفقه ، رضى الله عنه .

وقد نقلت عنه في فتاوى الثانية عن التصوف قوله بعد أن سئل عن الصوفية ، فكان جوابه الذى ذكره في رسالته عن « الفقراء » وهو أعدل ما قيل فى القوم ، قال رحمه الله :

« تنازع الناس فى طريقهم : فطائفة ذمّت « الصوفية والتصوف » وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنّة ، ونقل عن طائفة من الأئمة فى ذلك من الكلام ما هو معروف ، وتبعهم على ذلك طوائف من أهل الفقه والكلام . وطائفة غلت فيهم ، وادعوا أنهم أفضل الخلق وأكملهم بعد الأنبياء .. وكلا طرفى هذه الأمور ذميم .

والصواب : أنهم مجتهدون فى طاعة الله ، كما اجتهد غيرهم من أهل طاعة الله . ففيهم « السابق » المقرب بحسب اجتهاده ، وفيهم « المقتصد » الذى هو من أهل اليمين ، وفى كل من الصنفين من قد يجتهد فيخطئ ، وفيهم من يُذنب فيتوب أو لا يتوب . ومن المنتسبين إليهم من هو « ظالم لنفسه » ، عاص لربه .

وقد انتسب إليهم طوائف من أهل البدع والزندقة ، ولكن عند المحققين من أهل التصوف ليسوا منهم ، كالحلاج مثلاً ، فإن أكثر مشايخ الطريق أنكروه ، وأخرجوه عن الطريق ، مثل الجنيد سيد الطائفة وغيره ^(١) .. والله أعلم .

* *

(١) من رسالة « الفقراء » لابن تيمية .

• تقويم ابن القيم للصوفية :

وكذلك أنصف الصوفية الإمام ابن القيم ، كما تجلّى ذلك فى شرحه الواسع العميق المتوازن لرسالة العلامة الهروى « منازل السائرين » . وقد كان ابن القيم يعظم الهروى ويقدره ، لأنه كان حنبلياً ، وتوجهه فى فهم العقيدة وبيانها توجه سلفى ، ولا عجب أن يُطلق عليه لقب « شيخ الإسلام » ، ولهذا حاول أن يشرح كلامه شرحاً يُقرّبه إلى منهج الكتاب والسنة ، وهدى سلف الأمة ، ويحمله على أفضل الوجوه الممكنة ، ومع هذا لم يملك فى كثير من الأحيان إلا أن ينكر عليه ^(١) ، فالحق أحق أن يتبع ، والرجال يُعرفون بالحق ، وليس الحق يُعرف بالرجال .

ومن أوضح ما تبين فيه ذلك التوجه المنصف المعتدل قوله فى شرح ما ذكره الهروى عن منزلة « الرجاء » وما جاء فيه من شطحات وتجاوزات :

« شيخ الإسلام حبيب إلينا ، ولكن الحق أحب إلينا منه ! وكل من عدا المعصوم - صلى الله عليه وسلم - فمأخوذ من قوله ومتروك » .

وبعد محاولة من ابن القيم لحمل كلام الهروى على أحسن المحامل قال :

« هذا ونحوه من الشطحات التى تُرجى مغفرتها بكثرة الحسنات . ويستغرقها كمال الصدق ، وصحة المعاملة ، وقوة الإخلاص ، وتجريد التوحيد ، ولم تضمن العصمة لبشر بعد رسول الله ﷺ .

وهذه الشطحات أوجبت فتنة على طائفتين من الناس . إحداهما : حُجبت بها عن محاسن هذه الطائفة ، ولطف نفوسهم ، وصدق معاملتهم ، فأهدروها لأجل هذه الشطحات ، وأنكروها غاية الإنكار . وأساءوا الظن بهم مطلقاً وهذا عدوان وإسراف . فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة ، وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات ، والحكم ، وتعطلت معالمها .

والطائفة الثانية : حُجّبوا بما رأوه من محاسن القوم ، وصفاء قلوبهم ، وصحة عزائمهم ، وحسن معاملاتهم عن رؤية عيوب شطحاتهم ، ونتاجاتها . فسحبوا عليها ذيل المحاسن . وأجروا عليها حكم القبول والانتصار لها . واستظهروا بها فى سلوكهم .

(١) انظر نموذجاً لذلك : ما ذكرناه فى كتابنا « الصحوة الإسلامية بين الاختلاف

نشروع والفرق المذموم » فصل « ترك الطعن والتجريح » ص ٢٣٣ ، ٢٣٤

وهؤلاء أيضاً معتدون مفرطون .

والطائفة الثالثة : - وهم أهل العدل والإنصاف - الذين أعطوا كل ذي حق حقه ، وأنزلوا كل ذي منزلة منزلته ، فلم يحكموا للصحيح بحكم السقيم المعلوم ، ولا للمعلوم السقيم بحكم الصحيح . بل قبلوا ما يقبل . وردوا ما يرد .

وهذه الشطحات ونحوها هي التي حذّر منها سادات القوم ، وذموا عاقبتها . وتبرؤا منها ، حتى ذكر أبو القاسم القشيري في رسالته : أن أبا سليمان الداراني رأى بعد موته ، ف قيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي . وما كان شيء أضر عليّ من إشارات القوم .

وقال أبو القاسم : سمعت أبا سعيد الشحام يقول : رأيت أبا سهل الصعلوكي في المنام ، فقلت له : أيها الشيخ ، فقال : دع الشيخ . فقلت : وتلك الأحوال ؟ فقال : لم تغن عنا شيئاً ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ قال : غفر لي بمسائل كانت تسأل عنها العجائز .

وذكر عن الجريري : أنه رأى الجنيد في المنام بعد موته ، فقال : كيف حالك يا أبا القاسم ؟ فقال : طاحت تلك الإشارات . وفيت تلك العبارات . وما نفعنا إلا تسيحات كنا نقولها بالغدوات « (١) » .

※ ※

● التصوف باعتباره تراثاً تربوياً :

هذا والتصوف باعتباره تراثاً في التربية الأخلاقية والسلوك الإيماني ، لا يمكن الاستغناء عنه ، كما لا يمكن الاستغناء عن تراث الفقه في معرفة الأحكام الظاهرة .

ولهذا ظل في نفسى خاطر يراودني من زمن ، وهو الكتابة في هذا الجانب الروحي ، أو الرباني ، أو الإيماني ، أو الأخلاقي ، الذي سماه العلامة أبو الحسن الندوي « ربانية لا رهبانية » ، كتابة تستمد من القرآن والسنة ، وتستفيد من سلف الأمة ، ومن تراث القوم الرحب ، وتزنه بميزان الشريعة المعصومة ، وتصله بقيم الإسلام الشامل المتوازن ، وترجمه إلى لغة العصر ، بحيث يفهمه طالبوه ، ويتعاملون معه بيسر .

※ ※

(١) انظر : « مدارج السالكين » : ٣٧ / ٢ - ٤٠ - طبع السنة المحمدية بمصر .

● ما ثبطني عن الكتابة في السلوك :

يَبْدُ أنه كان مما يثبطني عن ذلك : ما أعلمه عن نفسي من تفريط في جنب الله تعالى ، وتقصير في طاعته سبحانه ، وأن جناحي مهبط عن الطيران في هذه الأجواء العليا ، فكيف ألقى بنفسى في بحر خضم لا أحسن السباحة فيه ، ولا الغوص في أعماقه ؟ وإذا كان لى فضل هنا - والفضل لله وحده - فهو أنى أعرف نفسى جيداً ، ولا تستطيع بمكرها أن تخدعنى عن سبر غورها ، وكشف زيفها ، ولم يغترنى عن استبانة حقيقتها مدحُ الناس لى ، وثناؤهم على شخصى ، وذلك لأن الخلق يتعاملون مع الظواهر لا مع السرائر ، مع القشور لا مع اللُّباب ، مع السطوح لا مع الأعماق . وأنا أتمثل دائماً بقول ابن عطاء الله فى حكمه : « الناس يمدحونك بما يظنونهم فيك ، فكن أنت ذاماً لنفسك لما تعلمه منها . . أجهل الناس مَنْ يترك يقين ما عنده لظن ما عند الناس ! »

وكم أحجل من نفسى - والله - حين يصفون على من الأوصاف ما لست أهلاً له ، وهذا من جميل ستر الله على عباده ، وما أجمل ما قاله أبو العاتية :

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
فإذا المستور منا بين جنبيه فضوح

وفى هذا قال ابن عطاء أيضاً :

« المؤمن إذا مُدح استحيا من الله أن يُثنى عليه بوصف لا يشهده من نفسه ! إذا أُطلق الثناء عليك ولست له بأهل ، فائن عليه - تعالى - بما هو أهله ! مَنْ أكرمك فإنما أكرم فيك جميل ستره ، فالحمد لمن سترك ، ليس الحمد لمن أكرمك وشكرك ! »

وكثيراً ما كنت أتمثل - عندما يمدحنى مادح أحسن بى ظنه - بقول الشاعر الصالح يناجى ربه :

يظنون بى خيراً وما بى من خير ولكننى عبد ظلوم كما تدرى !

سُتِرَ عِيوبِي كُلُّهَا عَنْ عِيُونِهِمْ وَأَلْبَسْتَنِي ثَوْبًا جَمِيلًا مِنَ السُّتْرِ
فَصَارُوا يُحِبُّونِي ، وَمَا أَنَا بِالَّذِي يُحِبُّ ، وَلَكِنْ شَبَّهُونِي بِالْغَيْرِ !
فَلَا تَفْضَحْنِي فِي الْقِيَامَةِ بَيْنَهُمْ وَكُن لِي يَا مَوْلَايَ فِي مَوْفِ الْحَشْرِ

كَانَ حَيَاتِي مِنْ رَبِّي ، ثُمَّ مِنْ نَفْسِي وَتَقْصِيرِي ، حَائِلًا بَيْنِي وَبَيْنَ الدُّخُولِ
فِي عِلْمِ السُّلُوكِ ، رَغْمَ طَلَبِ عَدَدٍ مِنْ إِخْوَانِي وَتَلَامِيذِي أَنْ أَكْتُبَ فِي ذَلِكَ
لِلنَّاسِ شَيْئًا ، لَعَلَّ اللَّهَ يَنْفَعُ بِهِ .

ثُمَّ قَوَّى عَزْمِي عَلَى ذَلِكَ قُوَّةَ رَجَائِي فِي رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَغْفِرَتِهِ وَإِحْسَانِهِ ،
وَأَنِّي إِنْ لَمْ أَكُنْ أَهْلًا أَنْ أَتَالَ رَحْمَتَهُ ، فَرَحْمَتُهُ أَهْلٌ أَنْ تَنَالَنِي ، وَقَدْ قَرَأْتُ
فِي الصَّحِيحِ : أَنْ رَجُلًا جَاءَ يَسْأَلُ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ السَّاعَةِ ، فَقَالَ لَهُ :
« وَمَا أَعَدَدْتَ لَهَا » ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعَدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ
وَلَا صَدَقَةٍ ، وَلَكِنِّي أَحَبُّ اللَّهُ وَرَسُولَهُ ! قَالَ : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » (١) .

فَمَا فَرَحَ الصَّحَابَةُ بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِهَذَا الْحَدِيثِ ، لَيَقِينَهُمْ بِأَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ .

وَقِيلَ لِلنَّبِيِّ ﷺ : الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ ، وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ ! قَالَ : « الْمَرْءُ مَعَ
مَنْ أَحَبَّ » (٢) .

بَلْ صَحَّ أَنْ رَجُلًا جَاءَ بِهِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَرَاتٍ كَثِيرَةً فِي شَرْبِ الْخَمْرِ ،
وَهُوَ يُضْرَبُ ، ثُمَّ يَعُودُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُ الصَّحَابَةِ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتِي بِهِ ،
لَعَنَهُ اللَّهُ ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لَا تَلْعَنُوهُ ، فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » (٣) .

(١) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عَنْ أَنَسٍ : اللَّوْلُوُ وَالْمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانُ بِرَقْمِ (١٦٩٣) .

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ عَنْ أَبِي مُوسَى : اللَّوْلُوُ وَالْمَرْجَانُ فِيمَا اتَّفَقَ عَلَيْهِ الشَّيْخَانُ بِرَقْمِ (١٦٩٤) .

(٣) رَوَى الْبُخَارِيُّ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ : أَنَّ رَجُلًا كَانَ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ ، كَانَ اسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ
وَكَانَ يُلَقَّبُ : حِمَارًا ، وَكَانَ يَضْحَكُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ ، فَأَتَى بِهِ
يَوْمًا ، فَأَمَرَ بِهِ فَجُلِدَ ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : اللَّهُمَّ الْعَنِهِ ، مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتِي بِهِ ؛ فَقَالَ النَّبِيُّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « لَا تَلْعَنُوهُ ، فَإِنَّهُ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ » .

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ « الْحُدُودِ » - الْبُخَارِيُّ مَعَ الْفَتْحِ جُزْءَ ١٢ حَدِيثُ (٦٧٨٠) .

وأنا أرجو أن أكون ممن يحب الله ورسوله ، ويحب الصالحين من عباده ،
وإن لم يكن منهم : كما قال القائل :

أُحِبُّ الصَّالِحِينَ وَلَسْتُ مِنْهُمْ عَسَانِي أَنْ أُنَالَ بِهِمْ شِفَاعَةً !
وَأَكْرَهُ مَنْ بَضَاعَتُهُ الْمَعَاصِي وَإِنْ كُنَّا سَوَاءً فِي الْبَضَاعَةِ !

※ ※

● حاجة الناس إلى الحياة الربانية والتربية الإيمانية :

لقد تبين لى من خلال التجربة العملية ، والممارسة الميدانية ، مع عوام الناس ومع مثقفهم ، مع الغافلين منهم ، ومع العاملين فى الجماعات الإسلامية المختلفة ، أن الجميع أفقر ما يكونون إلى تربية إيمانية صادقة ، تغسل قلوبهم من حب الدنيا ، ومن حب أنفسهم ، وتأخذ بأيديهم إلى الله تبارك وتعالى ، وتحررهم من العبودية للأشياء وللأهواء وللأوهام ، ليعتصموا بالعبودية لله وحده ، وبذلك يطهرون عقولهم من الشرك ، وقلوبهم من النفاق ، وألسنتهم من الكذب ، وأعينهم من الخيانة ، وأقوالهم من اللغو ، وعباداتهم من الرياء ، ومعاملاتهم من الغش ، وحياتهم من التناقض .

وبعبارة أخرى : هم فى حاجة إلى « التزكية » للنفوس ، التى لا فلاح بغيرها ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ (١) .

والتزكية من الزكاة ومعناها : الطهارة والنماء ، والطهارة تعنى : التخلص عن النفاق والردائل ، والنماء يعنى : التحلى بالإيمان والفضائل ، فهى - كما يقول أهل السلوك - تخلية وتحلية .

ولقد جعل القرآن من مهمة الرسول الأساسية : « التزكية » مع تلاوة آيات الله ، وتعليم الكتاب والحكمة ، كما جاء ذلك فى أربع آيات من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢) .

(٢) آل عمران : ١٦٤

(١) الشمس : ٧ - ١٠

ولقد قام النبي ﷺ بمهمته خير قيام ، وربى أفضل جيل عرفته البشرية :
إيماناً وتعبداً ، وخلُقاً وبذلاً ، وجهاداً فى سبيل الله ، وكان هذا الجيل
النموذجى معلماً للبشرية كلها من بعد .

والناس أحوج ما يكونون إلى التأسى بهذا الجيل الربانى ، والتخلق
بأخلاقه التى وصفها الله فى آخر سورة الفتح ، وتحقيق « شُعب الإيمان »
السبعة والسبعين فى حياتهم حتى يرضى الله عنهم ، وحتى يصلوا إلى درجة
« الإحسان » الذى عرفه الرسول الكريم بقوله : « أن تعبد الله كأنك تراه ،
فإن لم تكن تراه ، فإنه يراك » كما جاء فى حديث جبريل المشهور .

إنهم فى حاجة إلى معرفة عيوب النفس ، وأمراض القلوب ، ومجامع الهوى ،
ومداخل الشيطان ، وكيف يتقيها المسلم ما استطاع . فالوقاية أسلم ، وكيف يعالجها إذا
سقط فيها ، فما جعل الله داء إلا جعل له شفاء ، علمه من علمه ، وجهله من جهله .
ولكن الخطر هو اهتمام الناس بأمراض أبدانهم ، وغفلتهم عن أمراض
قلوبهم ، وإذا تنبهوا لها ، فأين يجدون أطباء القلوب ؟ والمفروض أنهم العلماء ،
يُبد أن العلماء أنفسهم باتوا من جملة المرضى ، فلا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلا بالله !
وقد قال الشاعر :

بالمَلح يصلح ما يخشى غيره فكيف بالمَلح إن حَلَّت به الغيرُ ؟!

لكن الخير لن ينقطع عن هذه الأمة ، ولا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة .

إن الحياة المادية المعاصرة : رحي طحون ، والناس هم الحب المحصور بين حجرىها
الكبيرين ، تطحنهم طحناً ، ثم بعد ذلك يُعجنون ويُخبزون ، ولا تنضجهم إلا النار !
ولا سبيل أمام البشرية عامة ، والمسلمين خاصة ، إلا بالحياة الربانية .

إنهم فى حاجة إلى « ربانية نقية » ترفعهم من حضيض عبادة الشيطان ، إلى ذُرَا
عباد الرحمن ، وتنقلهم من تعاسة عبودية الدينار والدرهم ، وعبودية الدنيا ،
إلى سعادة التحرر منها ، وعز طالب الآخرة . إنهم فى حاجة إلى « الصدق
مع الحق ، والخلُق مع الخلق » ، وهذا ملخص التصوف ، أو هو تقوى الله

والإحسان إلى خلقه ، وهذا هو الدين كله ، وإليه الإشارة بقوله تعالى في ختام سورة النحل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ (١) .

نريدها « ربانية نقية » واضحة الغاية ، بيّنة الطريق ، مستقيمة على أمر الله ، متبعة لسنة رسول الله ﷺ ، ماضية على نهج السلف ، بعيدة عن بدع القول والعمل ، وانحراف الاعتقاد والسلوك ، تسمو بالروح ، وتركى النفس ، وتحبى الضمير . تجدد الإيمان ، وتصلح العمل ، وترقى بالأخلاق ، وتنمى حقيقة الإنسان ! لا نريدها دروشة منحرفة ، ولا رهبانية مغالية ، ولا مظهرية زائفة ، ولا نظريات فلسفية بعيدة عن روح الإسلام ، ووسطية الإسلام .

* *

● موقف بعض السلفيين من التصوف :

وأود أن أنبه هنا : أن بعض الإخوة السلفيين يغالون في الموقف من التصوف ، ويعتبرونه كله شيئاً دخيلاً على الإسلام ، ويتهمون أهله كلهم بالابتداع والانحراف ، كما يتضح ذلك من تعليقات العلامة الشيخ محمد حامد الفقى رحمه الله ، على كتاب « معارج السالكين » لابن القيم ، ومثله كثير من أتباع المدرسة السلفية ، الذين أرسلوا أعلامهم وألستهم شواظاً من نار على التصوف كله . وعلى أتباعه جميعاً ، قديماً وحديثاً ، وهذه مبالغة غير صحيحة ، وغير مقبولة ، وغير نافعة .

* *

● ابن تيمية وابن القيم رجلان ربّانيان :

ومن العجيب أن هؤلاء ينتمون إلى مدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه الإمام ابن القيم ، وهما من الربانيين الصادقين نظرياً وعملياً . . نظرياً . . كما تدل على ذلك كتاباتهما ، فابن تيمية له رسائل في التصوف والسلوك بلغت مجلدين من مجموع فتاويه ، بالإضافة إلى كتابه « الاستقامة » الذى صدر فى جزأين بتحقيق الدكتور رشاد سالم رحمه الله .

وابن القيم له مجموعة كبيرة من المؤلفات ، مثل : الجواب الكافى ، وطريق الهجرتين ، وعدة الصابرين ، وروضة المحبين ، وأعظمها وأوسعها من غير شك : مدارج السالكين شرح منازل السائرين إلى مقامات ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ .

وعملياً . . . كما دلّت على ذلك سيرة الرجلين ، وصلايتهما فى الحق ، وصبرهما على الأذى ، وجهادهما فى سبيل الله ، وحبهما لله ورسوله ، وإقبالهما على الله تعالى ، إقبالاً يشهد به كلٌّ من عرفهما واقترب منهما ، رضى الله عنهما .

حسبك من ابن تيمية أنه تقبّل المحن والسجن فى سبيل الله ، بنفس راضية ، وقلب مطمئن ، قائلاً : « إن جئت فى صدرى ، حيثما ذهبت فهى معى ، ماذا يصنع أعدائى بى ؟ إن سجنونى فسجنى خلوة ! وإن نفّونى فنفى هجرة ! وإن قتلونى فقتلى شهادة ! »

وحين أدخل القلعة لیسجن ، ورأى سورها ، ذكر قول الله تعالى : ﴿ فَضْرَبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴾ (١) .

إنها الربانية التى تستعذب العذاب فى سبيل الله ، وتعيش فى جنة الرضا مهما أصابها فى ذات الله .

ومن إنصاف ابن تيمية : أنه أثنى على كثير من مشايخ الصوفية ، ومنهم الشيخ عبد القادر الجيلانى ، الذى نقل عنه بعض كلماته فى « القَدَر » ونوّه بها ، وكذلك ابن القيم .

وهذا ما ينقص كثيراً من يدعون الانتساب إلى مدرسته ، ولا تجد لأحدهم

عيناً تدمع ، ولا قلباً يخشع ، ولا جسداً يرتعش ، من خشية الله تعالى ،
ولا تحس لديهم تلك العاطفة الندية الدافقة بحب الله تعالى ورسوله .
ولكنه الاتباع الآلى الجاف الصارم ، كأنما هو ترس فى ماكينة ، يُدار فيدور ،
ولا روح له ، ولا حياة فيه !

وفى مقابل هؤلاء صنف يتمتع بالعاطفة الحارة ، والوجدان الحق ، والروح
النيّاض بالحب والخشية ، ولكنه غير منضبط بضوابط الشرع ، يحكمه ذوقه ووجدانه ،
أو ذوق مشايخه ووجدانهم ، وهؤلاء هم أكثر المتصوفة ، أعنى المخلصين منهم .
وكلا الصنفين أفرط فى ناحية وفرط فى أخرى ، والخير كل الخير فى
الوسْطية المتميزة عن طرفى الإفراط والتفريط .

* *

● تصوف السِّلَفية ، وتسليف الصوفية :

لهذا كان من الخير أن نطعم كل واحد من الصنفين أو الطرفين بالمزايا التى
عند الطرف الآخر ، وهو ما عبّر عنه المفكر المسلم الأستاذ محمد المبارك
رحمه الله بقوله : نسلّف الصوفية ، ونصوّف السِّلَفية !
وبهذا التطعيم ينشأ صنف جامع لمزايا الفئتين ، منزّه عن عيوب كل منهما .
وأحسب أن هذا ما حاوله الإمام حسن البنا الذى كان يجمع - فى رأى -
عقلية السِّلَفى الملتزم ، وروحانية المتصوف المحلّق .

وهذا ما أحاول أن أصل إليه بإصدار هذه السلسلة التى أدعو الله أن يوفقنى
فيها ، لأبين فيها لسالكى الطريق إلى الله تعالى : ما ينبغى علمه وعمله ،
حتى يجوزوا عقباته ، ويقطعوا مراحلها ، ويتخطوا عوائقه ، ييقن أهل المعرفة ،
وعزيمة أهل الصبر ، ونية أهل الإخلاص ، وجهاد أهل الصدق ، وثبات أهل
الإيمان ، وإحسان أهل المحبة .

* *

● منهجنا في هذه الدراسة :

وسأجتهد في هذه الدراسة : أن نرد التصوف إلى جذوره الإسلامية ، مستمدين من محكمات القرآن الكريم وصحيح السُّنة المطهرة ، وأن أنقى التصوف الحق مما علق به من شوائب كدّرت صفاءه ، وشابت جوهره ، مما تأثر به من مصادر أجنبية غريبة عن طبيعة الإسلام ووسْطِيّته ، ومما دخل عليه من أوهام البشر وأهوائهم وتجاوزاتهم المائلة إلى الغلو حيناً ، وإلى التقصير حيناً آخر ، ودين الله - كما قال سَلَفُ الأُمة - بين الغالى فيه والجافى عنه .

وقد كان مما أثر في التصوف جملة أشياء ، منها :

١ - قبول « الإسرائيليات » التي جاء بها مَنْ أسلم من أهل الكتاب ، وكثير منها لا يوجد له أصل في كتبهم المعروفة ، مما يدل على أنها من حكايات العوام بعضهم لبعض .

٢ - أخذ كل ما يروى من الأحاديث النبوية مأخذ التسليم ، دون تمييز بين ما يُقبل وما يُرد ، بناء على ما قيل من أن الحديث الضعيف يُعمل به في فضائل الأعمال ، وفي الترغيب والترهيب ونحو ذلك ، ورغم أن هذا ليس متفقاً عليه ، فإن الذين قالوه اشتراطوا لقبول الضعيف شروطاً لم يراعها المتصوفة في الغالب ، حتى إنهم رَوَوْا الأحاديث الضعيفة جداً ، والتي لا أصل لها بالمرّة ، والموضوعة المكذوبة ، وهذا شائع بينهم ومعروف .

٣ - الثقة المطلقة بشيوخهم ، فما قاله الشيخ فهو حق ، وما أمر به فهو مطاع ، دون أن يعرض ذلك على الشرع ، وقد شاع في التربية عندهم قولهم : مَنْ قال لشيخه : لم ؟ لا يفلح ! المرید بین یدى الشيخ كالمیت بین یدى الغاسل !! مع أن من المقرر المتفق عليه : أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويُردّ عليه ، إلا المعصوم - صلى الله عليه وسلم .

٤ - الثقة كذلك بأذواقهم ووجداناتهم الخاصة ، وما يأمر به الكشف والإلهام ، والرجوع إلى حكمها مثل حكم الشرع أو قبله ! مع أن تلك الأذواق والإلهامات ، غير مأمونة ولا معصومة ، وقد أغنانا الله عنها بالوحي الذي لا يضل ولا ينسى .

٥ - عدم الوقوف عند ما جاء به الشرع فى العبادات والأذكار والسلوكيات ، ووضع أورد من عند المشايخ بدل الأوراد المأثورة ، واختراع عبادات أو قبول عبادات لم يأمر بها قرآن ولا سنة ، وإنما هى مما أحدثه الناس ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

لهذا سيكون عمدتنا هو القرآن الكريم المصدر الأول للملة ، والينبوع الأول للعقيدة والشريعة والتربية والسلوك ، ثم السنة المشرقة المبينة للقرآن ، مكتفين بالصحيح والحسان من الأحاديث ، فهى التى تبين موقف الإسلام من الأحكام ومن السلوك ، وما نذكره من حديث نُبِنَ مَنْ أخرجهُ ودرجته ، وعندنا من الأحاديث المقبولة ما يغنينا عن الأحاديث الواهية ، وإذا ذكرنا - فى أحيان قليلة - الضعيف ، فذلك للاستئناس به لا للاحتجاج والاستشهاد .

وسنضرب صفحاً عن الإسرائيليات إلا ما كان منها مؤيداً لما ثبت فى ديننا من فضائل ومكارم ، وكذلك عن غرائب الأقوال والحكايات التى تتسم بالمبالغة والتهويل ، ولا يقوم على صحتها دليل .

وسننقل عن كبار شيوخ القوم ما لا بد لنا منه ، لشرح المفاهيم ، وبيان الحقائق ، وتوضيح القيم ، وخصوصاً المعروفين منهم بالاستقامة والالتزام ، مثل سيد الطائفة الجنيد ، وسهل التستري ، وأبى سليمان ، والزهاد الأوائل مثل : الحسن البصرى ، والفضيل بن عياض ومالك بن دينار وغيرهم .

وسنقتبس من تراث القوم ما يكشف الغوامض ، وينير العقول ، ويوقظ القلوب ، ويحرك العزائم ، مثل كتب الحارث المحاسبي ، والقشيري ، وأبى طالب المكي ، والغزالي ، وابن القيم ، وابن عطاء الله ، وغيرهم . . إلى جوار ما نأخذ من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمربين ، من القدماء والمحدثين .

وسنبعد عن « المصطلحات » والكلمات المثيرة للجدل والخلاف ، متوخين السهولة والتيسير والاعتدال ، فإن هدفنا أن نبني ولا نهدم ، وأن نجتمع ولا نفرق ، وإن نهدي ولا نؤذي ، والعبرة بالمسميات والمضامين لا بالأسماء والعناوين .

وأملنا أن نسهم - بهذه السلسلة - فى تقريب الناس من ربهم الذى خلقهم

فسوأهم ، لناخذ بأيديهم إلى الله ، ونحشدهم فى ساحة رضاه ، والتخفيف من التكالب على الدنيا والغفلة عن الآخرة ، وتقوية الإيمان فى القلوب ، حتى يحب أحدهم لآخره ما يحب لنفسه ، فإن لم يرق إلى هذه الدرجة ، فليطهر صدره من الغل والحسد والأحقاد والبغضاء ، فإنها هى الحالقة ، لا تخلق الشعر ، ولكن تخلق الدين ، والتحذير من القواطع الأربعة ، التى تقطع السالكين عن طريق الله ، والتى قال فيها الشاعر :

إنى بُليتُ بأربع يرمينى بالنبل عن قوس له توتير !
إبليس والدنيا ونفسى والورى يا رب أنت على الخلاص قدير !

* *

● التوازن بين فقه الأحكام وفقه السلوك :

الحق أن فقه الأحكام الفرعية العملية المتعلقة بظاهر الحياة الدنيا ومعاش الناس ، قد شغل من حياتنا وفكرنا وجهدنا حيزاً كبيراً ، خواصنا وعوامنا . لهذا الفقه أنشئت المجامع المحلية والعالمية ، وعقدت الندوات والمؤتمرات المتخصصة ، وأنشئت الكليات والأقسام ، وألفت الكتب ما بين مبسوط ووسيط ووجيز .

هذا بالنسبة للخواص ، وبالنسبة للعوام ، قد شغلوا أنفسهم وشغلهم علماءهم بالجزئيات والتفصيلات ، بل التعقيدات ، حتى غدا باب الطهارة يدرس للجمهور خلال شهر رمضان كله ، ثم لا يتتهون منه .

هذا .. وقد كان الرجل يأتى النبى ﷺ من باديته ، فلا يمكث إلا يوماً أو أياماً ، ثم يعود إلى قومه ، وقد فقه دينه ، بالرؤية والمباشرة : « صلُّوا كما رأيتمونى أصلى » .

ليس معنى هذا أن نهمل فقه الأحكام الظاهرة ، بل هو مطلوب وواجب ، ولكن التوازن مطلوب وواجب أيضاً : التوازن بين الظاهر والباطن ، أو بين أعمال الجوارح وأعمال القلوب .

لقد جعل الإمام الغزالى « الفقه » القائم على مراعاة الظاهر وحده ،

من « علوم الدنيا » لا من علوم الآخرة ! حتى إنه عاب على أهل الفقه في زمنه تركهم بعض فروض الكفاية المهمة للأمة ، وأكبوا على الفقه لما وراءه من مناصب القضاء والإفتاء وغيرها ، على حين لا يوجد طبيب في البلدة إلا من أهل الذمة !

لذا كان لا بد أن نعيد لـ « فقه القلوب » مكانه ومكانته ، ونعطيه حقه من الاهتمام العلمي والعملی ، وأن نوجه عناية الخاصة والعامة إلى « فقه السلوك » ، سلوك طريق الله ، وطريق الآخرة ، فلا نجاه إلا به ، ولا صلاح بغيره ، بل لا حياة بدونه ، ولا وصول إلى الله بسواه .

إنها التجارة الرباحة التي غفل عنها أكثر الخلق : التعامل فيها مع رب العالمين ، ورأس المال لها هو العمر ، والبضاعة هي الطاعة ، والربح هو المغفرة والجنة في الآخرة ، والحياة الطيبة في الدنيا : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴾ * لِيُوفِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ، إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿ (١) .
﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (٢) .

فمن ضيَّع هذه التجارة ، فقد ضيَّع نفسه ، وخسر كل رأس ماله ، وفاته خير الآخرة والأولى .

على نفسه فليترك من ضاع عمره وليس له منها نصيب ولا سهم !
وصدق الله إذا يقول : ﴿ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (٣) .

وخسارة رأس المال هنا لا عوض لها ، إذ لا عمر بعد العمر ، ولا تأخير إذا جاء الأجل : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا ، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

(٢) النحل : ٩٧

(٤) المنافقون : ١١

(١) فاطر : ٢٩ - ٣٠

(٣) الزمر : ١٥

أَسْأَلُهُ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ هَذِهِ الدِّرَاسَاتِ قِبْسًا مِنَ الْعِلْمِ النَّافِعِ ، وَعَوْنًا عَلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَنُورًا يَضِيءُ الطَّرِيقَ ، وَيَجْعَلُهَا لِي لَوْناً مِنَ الْمَجَاهِدَةِ فِيهِ ، وَلَا يَحْرِمَنِي مِنَ الْهَدَايَةِ الَّتِي وَعَدَهَا بِقَوْلِهِ : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

« اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنْ عَمَلٍ لَا يُرْفَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا » (٢) .

اللَّهُمَّ اجْعَلْنَا مِنْ عِبَادِكَ الَّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ فَيَعْلَمُونَ ، وَيَعْلَمُونَ فَيَعْمَلُونَ ، وَيَعْمَلُونَ فَيُخْلَصُونَ ، وَيُخْلَصُونَ فَيُثَبَّتُونَ ، وَيُثَبَّتُونَ فَيُقْبَلُونَ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُغِ غْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿ (٣) .

الدُّوحَةُ فِي ذِي الْحِجَّةِ ١٤١٣ هـ - يُونِيُو (حَزِيرَان) ١٩٩٣ م (*) .

الفَقِيرُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى

يُوسُفُ الْقُرْضَاوِي

* * *

(١) العنكبوت : ٦٩ (٢) رواه مسلم . (٣) آل عمران : ٨ - ٩
(*) هذا تاريخُ كتابَةِ المقدمة ، وَهَا أَنَذَا أَقْدِمُ الْكِتَابَ لِلطَّبْعِ بَعْدَ سَتَيْنِ : أَيْ فِي ذِي الْحِجَّةِ ١٤١٥ هـ (يُونِيُو ١٩٩٥ م) .